أعلام العرب
٦٦

ابن زيدون

نصب

تأليف
على عبد العظيم

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه . والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بهم وسار فى سبيلهم بقوة وعزم وايمان .

مقدمة

ابن زيدون علم من أعلام الأدب العربى الممتازين ، وقمة باذخة من شواهق الأدب الأندلسى الرفيع ؛ ترك أثرا خالدا فى الأدب العربى بما أبدعه من نظم رقيق ، ونثر أنيق ، وسياسة بارعة وحكمة بالغة وتصنيف محكم قيم ، وتوجيه رشيد سديد .

وسنرى من خلال بحثنا أن آثاره الأدبية لم يتردد صداها فى الأدب العربى وحده ، بل تعداه الى غيره من الآداب . وظل يرسل اشعاعه الوضاء جيلا بعد جيل .

وعلى الرغم من اصالة مواهبه الأدبية وشهرته العظيمة فانه لم ينل ما هو أهل له من التقدير ، فان الباحثين ومؤرخى الآداب لم يولوه ما يستحقه من عناية بالغة ولم يقبلوا على دراسة آثاره دراسة علمية دقيقة الا منذ أمد قصير ومع اقبال الباحثين أخيرا على دراسة آثاره فانها لا تزال بحاجة الى معاودة البحث والتدقيق .

ولا يكاد اديب يذكر الأندلس الا ذكر معها فتاها الشاعر الرقيق

وكاتبها المبدع ابن زيدون ، ولا يكاد باحث يتناول الحب والغـزل الا تناول حياة ابن زيدون وقصته العاطفية العميقة مع الشـاعرة الممتازة ولادة بنت الخليفة المستكفى ، ولا يكاد شاعر يتغنى بالجمال الا هتف بنونية ابن زيدون :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ومع هذا كله فان آثاره الأدبية لا تزال بحاجة الى البحث والنقد والتحقيق .

ولعل هذا راجع الى عوامل عديدة صرفت الباحثين عنه امدا طويلا ، بل عن الأدب الأندلسى جميعه الا قليلا .

ومن أهم هذه العوامل :

أولا ـ فقد معظم الآثار الأدبية الأندلسية فى النكبة التى حلت بالأندلس فقضت على معظم الآثار الاسلامية فيها . فقد استبد التعصب بالمسيحيين المنتصرين فغدروا بالمسلمين واسـتباحوا حرماتهم ، وأقاموا محاكم التفتيش التى أنزلت ببقية المسلمين اقسى ضروب الوحشية وأعنف أساليب النـكال ، ولم تكتف بهذا بل انتقلت قسوتها الفاشمة الى تراث الحضارة الاسلامية فكادت تقضى عليه القضاء الأخير ؛ وفى هذا يقول « بلاسكو ابانيز المتوفى سنة ١٩٢٨ » :

« وماذا عمل ملوك أسبانيا الذين أتوا من الشمال بعد كل ذلك ؟ طردوا الحضارة من أسبانيا !! طردوا العرب واليهود واحلوا محلهم الدين والتعصب !! اليست الملكة ايزابيلا هى التى وضعت نظام التفتيش ؟ ألم **تطفىء أسبانيا فى ذلك العصر سراج العلم الذى كانت تضيئه الجوامع الاسلامية .. »** (١) .

---

(١) المجمل فى تاريخ الاندلس للأستاذ عبد الحميد العبادى ص ٢٠١ « مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥٨ » .

كما يقول ستانلى لين بول :

« أقنع الكاردينال شيمنيس الملكة ايزابيلا المتعصبة أن تصدر مرسوما تخير فيه العرب بين التنصر ومغادرة البلاد ، وجاء فى هذا المرسوم : أن أسلافهم كانوا مسيحيين وأن الكنيسة تعدهم ــ وهم من سلالتهم ــ مسيحيين منذ الولادة ، فيجب عليهم أن يظهروا دينهم الموروث ..

وبعد هذا المرسوم أغلق الكاردينال الحانق المساجد **وأحرق المخطوطات والكتب النفيسة التى هى عصارة الفكر العربى فى عدة قرون ..** » (١) .

ثانيا ــ ما بقى من التراث العربى الأندلسى تبدد بين مكتبات العالم العامة والمكتبات الخاصة ، وبعضه لحقه التلف نتيجة الاهمال ــ ومعظم ما سلم من هـــذا التراث لا يزال مخطوطا رهن مكتبة الاسكوريال أو باريس أو المكتبة الأهلية فى برلين أو مكتبات استانبول أو غيرها من المكتبات : ولا تزال مكتبات عديدة بالبلاد العربية سواء بالمساجد أو فى الدور أو بالمكتبات العامة لم تفهرس فهرسة علمية دقيقة ، وقد بذلت ادارة المخطوطات بالجامعة العربية وهيئة اليونسكو جهودا مشكورة فى محاولة تسجيل هذا التراث ولكنها لم تتناول منه الا القليل . والأغلبية العظمى منه تكاد تكون مجهولة للباحثين .

ثالثا ــ ما تم طبعه من هذا التراث قليل جدا ، ومعظمه تم طبعه دون تحقيق علمى دقيق أو فهارس شاملة تيسر للباحثين الوصول الى أهدافهم العلمية من تحقيق هذا التراث النفيس ! وحسبنا أن نشير هنا الى مثالين يدلان على عدم العناية الجدية بهذا التراث .

أولهما : كتاب الذخيرة لابن بسام ، وهو موسوعة أدبية كبرى

---

(١) قصة العرب فى اسبانيا للمؤرخ ستانلى لين بول ترجمة الأستاذ على الجارم طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٢٠٩ .

تلقى أضواء كشافة على تاريخ الأدب العربى بالأندلس فى القـــرن الخامس الهجرى ، وقد حفظت لنا نصوصا أدبية قيمة لا نجدها فى غيرها من المراجع الأندلسية . وهى مكونة من أربعة أقسام فى ثمانية مجلدات ضخمة حصلت عليها جامعة القاهرة وطبعت منها المجلد الأول سنة ١٩٣٩ والثانى سنة ١٩٤٢ ثم تركت المجلدات التالية وقفزت الى المجلد السابع فطبعته سنة ١٩٤٥ ووقف الأمر عند هذا الحد ؛ وقد سمعنا منذ سنوات أن الجامعة ستستأنف طبع بقية المجلدات ولكنها نية طيبة لا ندرى متى تخرج الى حيز الوجود . ومن الطبيعى أن ما تم طبعه من الكتاب لم توضع له الفهارس العلمية انتظارا لطبع بقية الكتاب !!

ثانيهما : كتاب نفح الطيب : وهو أكبر موسوعة أدبية أندلسية بين أيدينا الآن ، ويعتبر من أهم مراجع الأدب الأندلسى ان لم يكن أهمها ؛ وقد تم طبع الكتاب منذ أمـــد بعيـــد بالمطبعة الأميرية سنة ١٨٦٢ م دون تحقيق علمى أو فهارس تفصيلية ، ثم حاول طبعه الأستاذ أحمد فريد رفاعى فطبع منه بضعة عشر جزءا ولم يستطع اكمال طبع باقى الكتاب ؛ ولقد صدر قسم من الكتاب فى جزءين فى ليدن سنة ١٨٦١ مشفوعا بجانب من الفهارس فى أكثر من مائة صفحة ، لكن هذه الفهارس على دقتها تناولت جانبا من الكتاب ، وأهملت وضع إفهارس النصوص الأدبية من شعر ونثر وخطابة على ما لها من أهمية كبرى فى هذا الكتاب . ثم نشر الكتاب كاملا الشيخ محيى الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٩ فى عشرة مجلدات واكتفى بفهرس مجمل لكل جزء من أجزاء الكتاب . مع العلم أن النفع بهذا الكتاب القيم لا يمكن أن يتم دون وضع فهارس تفصيلية شاملة له ، لأن المؤلف ينتقل من موضوع الى موضوع دون مناسبة أو لأوهى المناسبات ، ويتنـــاول كثيرا من الموضوعات فى أبحاث متفرقة بمواضع متباعدة من أجزاء الكتاب .

رابعا ـ انصرف كثير من الباحثين ومؤرخى الآداب عن دراسة

الأدب الأندلسى لأنهم كانوا ينظرون اليه بوصفه صـــدى خافتا أو تقليدا غير متقن لأدب المشارقة ، وحكموا عليه هذا الحكم الظالم دون بحث أو تنقيب . وبعضهم تعصب لوطنه فاهتم بتراثه الأدبى ؛ وبقيت الأندلس مهملة لأنها ليس لها وارثون من أدباء العـــرب المحدثين .

وحسبنا أن نشير الى كتاب خريدة القصر لمؤلفه محمد بن محمد ابن على الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو سفر ضخم مكون من اثنى عشر مجلدا تناول فيه مؤلفه شعراء القرنين الخامس والسادس فى العالم العربى فى الشرق والغرب على السواء ، وقد عنى رجال الأدب بنشر أجزاء هذا الكتاب كل فيما يخص وطنه وبقى المجلدان الحادى عشر والثانى عشر دون نشر حتى الآن ، لأنه ليس لدينا باحث أندلسى يعنى بنشر هذين الجزءين ، وقد حملت هذا العبء انا وصديقى الأستاذ عمر الدسوقى أستاذ الأدب العربى ورئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة حيث قمنا بتحقيق هذين المجلدين وقد صدر الجزء الأول منهما والباقى تحت الطبع .

* * *

ولكن الانصاف يقتضينا أن نشير الى أن طائفة من أعـــلام الباحثين بدأت تتجه حديثا الى الأدب الأندلسى محاولة نشر ما يقع بين أيديها من نصوص أدبية ، أو القيام بأبحاث نقدية تحليلية ، وبعضهم تقدم برسائل جامعية وبعضهم حاول القيام بكتابة تاريخ جامع للأدب الأندلسى ، ولكن هذه المحاولات لن تبلغ مداها الا بعد نشر التراث الأندلسى وتحقيقه طبقا للمناهج العلمية الدقيقة .

ولقد قاسيت عنتا كبيرا فى كتابة رســـالتى الجامعية « ابن زيدون : عصره وحياته وأدبه » لأن ديوانه طبع دون تحقيق علمى طبعة مليئة بالأخطاء والتصحيف والتحريف ناقصة عددا كبيرا من النصوص الأدبية ، فضلا عما أضيف اليها من شعر منحول .

فاضطررت اضطرارا الى تحقيق الديوان تحقيقا علميا استكملت فيه ما به من نقص ونفيت ما فيه من منحول وصححت ما فيه من أخطاء وشرحت ما فيه من ابهام ، ورجعت فى هذا التحقيق الى أربع نسخ مخطوطة من هذا الديوان وأضفت اليها ما أغفلته مما عثرت عليه فى مئات المصنفات ؛ ثم حملت مثل هذا العبء فى تحقيق رسائله وآثاره النثرية .. وبعد هذا كله استطعت ان أخطو فى بحثى فى ثقة واطمئنان ؛ ثم حملت أشد من هذا العنت أنا وزميلى فى تحقيق خريدة القصر ــ ولا نستطيع أن نجحد فضل فئة من أعلام المستشرقين نشروا طائفة من النصوص الأندلسية وكتبوا أبحاثا عميقة حول هذه النصوص ، من أمثال رينهارت دوزى Reinhardt Dozy واميليا غرسية غومس Emilio Garcia Goncz وليفى بروفنسال Levi Provençal وآنجل جنثالث بالنثيا Angel Gonzalez Palencia والدكتور نيكل A.R. Nykl وكوندى Condé وستانلى لين بول Stanley Lane Poole وأوغست كور Auguste Cour وهنرى بيربز Henri Pérès وغيرهم من كبار المستشرقين ، كما حاول كثيرون كتابة تاريخ الأندلس وقد بذلوا جهدا كبيرا فى هذا السبيل ، ولكن نشر النصوص الأدبية والتاريخية والعلمية هو الوسيلة الأولى لنشر هذا التاريخ على منهج علمى قويم .

* * *

والانصاف يقتضينا أن نقرر ــ على الرغم مما سبق ــ أن ابن زيدون لم يكن خاملا فشهرناه ، ولا منسيا فذكرناه . ولا مجهولا فعرفناه ، فقد كانت له منزلة فى نفوس السابقين والمعاصرين جميعا.

روى الصفدى (١) أن بعض الأدباء قال : « من لبس البياض وتختم بالعقيق ، وقرأ لأبى عمرو ، وتفقه للشافعى ، وروى قصيدة ابن زيدون ــ النونية ــ فقد استكمل الظرف » .

---

(١) نمام المنون « مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤٨ أدب » ورقة ٥

وفى رواية أخرى للسخاوى (١) « قال أبو بكر بن مجاهد : « من قرأ بقراءة عمرو ، وتفقه للشافعى واتجر بالبز ، وروى شعر ابن المعتز فقد استكمل الظرف » ، ثم قال : « روى الحميدى عن أبى محمد بن حزم الحافظ انه قال : من تمذهب للشافعى ، وقرأ لأبى عمرو وتختم بالعقيق وروى قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف .. قلت (٢) : وكان بعض الفضلاء يقول : لو رأى ابن حزم قصيدة ابن زيدون النونية لعدل عن قصيدة ابن زريق (٣) ، ولكن يقال : انه ما حفظها أحد الا وفجع ببعض أحبابه .. »

وقد رجعنا الى ترجمة ابن حزم عند الحميدى فلم نجد لهذا الرأى ذكرا (٤) ، ومما لا شك فيه أن ابن حزم سمع بقصيدة ابن زيدون كما سمع بها الحميدى فابن زيدون صاغ هذه القصيدة الخالدة قبل سنة ٤٣٥ هـ ، وتوفى ابن حزم مواطنه بقرطبة سنة ٤٥٠ هـ وتوفى الحميدى صاحب الجذوة سنة ٤٨٨ هـ وهو من أهل قرطبة أيضا . ويظهر أن الرواية الأولى كانت لأحد المشارقة فعارضها أحد المغاربة بنونية ابن زيدون كعادة الأندلسيين فى تحدى أدباء المشرق ويؤيد هذا الرأى ما ذكره الادكاوى فى مقدمة تسديس النونية لابن حبيش : « وقعت على تسديس قصيدة الرئيس الوزير أبى الوليد ابن زيدون التى يقول عنها المغاربة : من حفظها وتمذهب للامام مالك بن أنس ولبس البياض وقرأ لورش كان من أظرف

(١) الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر جـ ١ لوحة ١٦٧ و ١٦٨ « نسخة مصورة عن باريس بدار الكتب المصرية رقم ٤٧٦٨ تاريخ » .

(٢) القائل هو شمس الدين السخاوى صاحب كتاب الجواهر والدرر .

(٣) قصيدة مشهورة قالها ابن زريق بالاندلس وهو غريب عن وطنه حينما أحس بمرض الموت مطلعها :

لا تعذليه ، فان العذل يولعه
قد قلت حقا ، ولكن ليس يسمعه

(٤) جذوة المقتبس لمحمد بن فتوح الحميدى نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١١٩٧٥ ح عن نسخة اكسفورد ـ لوحة ٢٩١ مذهب أهل المغرب والاندلس .

اهل زمانه خلاف ما تقوله المشارقة : من حفظ قصيدة ابن زريق وتختم بالعقيق وتمذهب بمذهب الامام الشافعى . وقرأ لأبى عمرو كان من اظرف أهل زمانه » (١) ومن هذه الروايات يتضح أن قصيدة ابن زيدون نالت شهرة ذائعة جعلت أدباء الأندلس يتحدون بها أدباء المشرق ؛ ولشهرتها نسجت حولها الأساطير روى أبو نصر الهورينى « أن نونية ابن زيدون اشتهرت حتى صارت محدودة (٢) » ويقال : « ما حفظها أحد ألا مات غريبا (٣) » ولشهرة هذه القصيدة لهج كثيرون بمعارضتها منذ صياغتها حتى الآن .

ولسنا بسبيل حصر جميع المعارضين لهذه القصيدة وحسبنا أن نذكر أن شهرة هذه النفحة الشعرية ذاعت فى الشرق والغرب ، وأن فحول الشعراء جعلوها انموذجا ينسجون على منواله ، وآخر من عارضها من المحدثين أحمد شوقى فى قصيدته التى صاغها بالأندلس أيام منفاه بها وتقع فى نيف وثمانين بيتا استهلها بقوله :

يا نائح الطلح أشباه عوادينـــا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا (٤)

كما طارح شوقى على منوالها صديقيه الشاعرين اسماعيل صبرى وحافظ ابراهيم . فكتب اليهما من منفاه بالأندلس أبياتا استهلها بقوله :

يا ساكنى مصر أنا لا نزال على
عهد الوفاء ـ وان غبنا ـ مقيمينا

---

(١) تسديس النونة الزيدونية ص ٢ « نسخة خطية بدار الكتب رقم ٦١٧ شعر تيمور » .

(٢) المحدود : المشئوم سيىء الحظ ، مأخوذ من الفعل « حد » المبنى للمجهول بمعنى قتر عليه فى الرزق وفى الخير على العكس من المحدود وهو المحظوظ .

(٣) مسودة التحريرات النصرية ورقة ٦ « نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٨٨٤٥ أدب » .

(٤) الشوقيات جـ ٢ ص ١٢٧ .

هلا بعثتم لنا من مـــاء نيلكم
كأسا نبل بها أحشاء صادينا

فأجابه صبرى بأبيات استهلها بقوله :

بأفق أندلس برق يحيينـــا
يبيت يضحك منا وهو يبكينا

وفيها يقول :

وهل تبينت فى أطلال قرطبـــة
آثار ولادة مـــع ابن زيدونا

واجابه حافظ من أبيات :

عجبت للنيـــل يدرى أن بلبـــله
صاد ، ويسقى ربا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأحبـــاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وان فارقت شـــاطئه
وقد نأينا وان كنا مقيمينـــا

وقد لهج شوقى بمعارضة ابن زيدون بعد أن ساعدته الظروف بقراءة ديوانه بعد طبعه (١) ، وباطلاعه على نفح الطيب الذى ضم طائفة منتخبة من شعر ابن زيدون وعلى سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون المطبوع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة منذ أكثر من مائة عام .

ونلاحظ أن معظم الشعراء لهجوا بقصيدة ابن زيدون النونية ويبدو لنا أنهم لم يطلعوا على ديوانه والا لوجدوا فيه قصائد عاطفية عميقة لا تقل أثرا عن القصيدة النونية ، ولقد ظل ديوان ابن زيدون مخطوطا حتى سنة ١٩٣٠ ، واذا رجعنا الى نسخه الخطية وجدناها ناقصة كثيرة التحريف والتصحيف . ومن هنا اشتهر ابن زيدون

---

(١) قرظ شوقى ديوان ابن زيدون فى طبعته الاولى سنة ١٩٣٢ .

عند الباحثين بهذه القصيدة كما اشتهر برسالتيه الهزلية والجدية ، وقد لهج بهماكثير من الأدباء وتعرض لشرحهما لفيف من الباحثين.

أما الذين تناولوا ابن زيدون بالدراسة من قدماء ومحدثين ومن شرقيين وغربيين فاننا سنشير اليهم عند الحديث عن مكانة ابن زيدون الأدبية ومنزلته فى الأدب القديم والحديث .

وحسبنا أن نشير الى أن ابن زيدون ظل فى مستوى دون مستواه الحقيقى حتى العصر الحديث . فقد طغت عليه شخصية ابن هانىء الأندلسى لأن الفاطميين أحاطوه بهالة من المجد والشهرة تمهيدا ليكون شاعر دولتهم الكبير ، وأحس هو هذا الاتجاه فبالغ فى مدحهم الى درجة ترفعهم فوق مراتب البشر استجابة لأهوائهم وأهدافهم المستورة فلما مات شابا قال فيه المعز لدين الله الفاطمى « كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك » وقد تأثر ابن خلكان ــ على جلالة قدره ــ بهذه الدعوة فقال فيه : « لولا غلوه فى المدح وافراطه المفضى الى الكفر لكان ديوانه من أحسن الدواوين .. وليس فى المغاربة من هو فى طبقته ــ لا من متقدميهم ولا من متأخريهم ، بل هو أشعرهم على الاطلاق ، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة . وكانا متعاصرين » (١) ونحن نعلم ان ابن خلكان مؤرخ كبير وراوية من الثقات ولكنه ليس من النقاد البارعين ، ونعلم أيضا أن اثر الدعوة الشيعية لم يزل بزوال الفاطميين وانما ظل صداه يتردد حتى العصر الحديث .

وقد ظلت نظرة ابن خلكان مسيطرة على الباحثين قرونا عديدة فعقدوا لواء الزعامة الشعرية بالأندلس لابن هانىء ، ومن المؤكد أنهم لم يدرسوا ابن زيدون ولا ابن حمديس ولا ابن شهيد ولا ابن خفاجة ولا غيرهم من شعراء الأندلس الموهوبين .

---

(١) أنظر ترجمة ابن هانىء فى وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥ ، ٦ طبعة القاهرة سنة ١٣١٠ هـ وله ترجمات فى جذوة المقتبس للحميدى والمطرب لابن دحية والاحاطة لابن الخطيب والتكملة لابن الابار .

ومن العجيب أن يختار البارودى زهاء أربعين ألف بيت لثلاثين شاعرا من فحول شعراء العصر العباسى ، ولكنه اقتصر عـــلى ابن هانىء من الشعراء الأندلسيين .

ومهما يكن من أمر فقد اتجه كثير من الباحثين من عـــرب ومستشرقين الى الدراسات الاندلسية فى العصر الحديث فكشفوا ما تراكم من غبار القرون على هذا الكنز الثمين . ونال ابن زيدون من العناية ما هو به جدير .

وقد أسهمنا فى الكتابة عنه فى رسالتنا الجامعية « ابن زيدون . عصره وحياته وأدبه » ورجعنا فى بحثنا الى مئات المصادر القديمة والحديثة ، العربية والأجنبية ، المطبوعة والمخطوطة ، ومع هذا فلا تزال هناك جوانب فى حياة هذا الشاعر الكبير تحتاج الى معاودة الدراسة والبحث ، ولعل هذا الكتاب يصور بعض هذه الجوانب ويكمل ما بدأناه .

ولعله يجذب الأنظار الى التراث الأنـــدلسى المجيد ومافيه من آيات بينات .

القسم الأول

الفردوس المفقود

الفصل الأول

الحضارة الأندلسيّة

حمل العرب معهم الى الأندلس تراثهم الاسلامى المجيد ، كما حملوا معهم بذور الحضارات القديمة من مدنيات الفرس والاغريق والرومان والهنود .. وظلت موجات الحضارات القديمة والحديثة تنتقل من الشرق الى الغرب على التوالى فى سرعة عجيبة سواء عن طريق العلماء الوافدين أو الراحلين أو عن طريق المصنفات .

وعنى حكام الأندلس عناية فائقة باستقدام كبار علماء المشرق وشعرائه وأدبائه ؛ ومن أبرز أعلام المشرق الراحلين الى الأندلس ابو على القالى صاحب الأمالى ، وصاعد الشاعر البغدادى وزرياب الفنان العظيم فى الموسيقى والغناء وأساليب الحياة الاجتمـــاعية الراقية . ومن أشهر الأندلسيين الذين قاموا برحلات علمية الى المشرق وعادوا منه لينشروا ما نقلوه فيه من علوم وآداب : عبد الملك ابن حبيب ومنذر بن سعيد البلوطى ، وابن الفرضى وابو الوليد الباجى ، وغيرهم من الأعلام ؛ بل ان كثيرين منهم رحلوا الى الشرق لينشروا فيه ما وصلوا الى ابتكاره من علوم مثل جمال الدين محمد ابن مالك صاحب الألفية ومحيى الدين بن عربى وابن خلدون وغيرهم من كبار المصنفين وكانت الرحلات لأداء فريضة الحج من الغرب الى الشرق متوالية متتابعة ، وكل من أدى هذه الفريضة يحرص على أن يقابل مشاهير علماء المشرق فيدرس ما لديهم ويعود به الى الأندلس ذخيرة يعتز بها أمام اهله وأصدقائه والمحيطين به وبقدر

ما يحمل من اجازات علمية (١) تعلو مكانته وتذيع شهرته وترتفع منزلته بين طوائف المثقفين وكان خلفاء الأمويين بالأندلس يحرصون على أن يجذبوا اليهم طوائف علماء المشرق وأدبائه ويغمروهم بالهدايا والألطاف واذا لم يتيسر لهم آستقدام هؤلاء العلماء حرصوا على ان يحصلوا على مصنفاتهم الأدبية قبل اذاعتها بالشرق فقد أرسل الخليفة الحكم المستنصر ألف دينار الى أبى الفرج الأصفهانى ليبعث اليه نسخة من كتابه الرائع « الأغانى » قبل أن يظهر بالمشرق ، وقد أنشأ بقرطبة مكتبة جامعة لم يسمع بمثلها ، ويقدر بعض الباحثين كتبها بمائتى ألف مجلد ويقدرها آخرون بمقدار ٤٠٠ ألف مجلد (٢) وكانت فهارسها وحدها ٤٤ كراسة فى كل كراسة منها خمسون ورقة ، ولم يكن بهذه الكراسات غير أسماء الكتب وحدها دون تعريف كامل بها (٣) وهذا العدد يدعو الى الدهشة وبخاصة اذا علمنا ان مخطوطات دار الكتب بالقاهرة الآن أقل من مائة ألف مخطوط ؛ وكان الحكم يقضى ساعات وأياما بهذه المكتبة وعهـــد الى أخيه عبد العزيز بالاشراف عليها .

وكان اقتناء الكتب شارة من شارات الرياسة والشرف حتى عند الجهال (٤). ويقدر الباحثون عدد مكتبات الأندلس العامة بنحو ستين مكتبة أنشأها الخلفاء الأمويون وغيرهم ، بل يقال : ان غرناطة وحدها كانت بها سبعون مكتبة عامة (٥) .

(١) الأجازات العلميـة هى ان يجيز أستاذ مرموق المكانة لاحد تلاميذه ان يروى عنه كتبه أو ما حصله من كتب غيره ، ويكتب له وثيقة بذلك ؛ ولابد للمجيز أن يثبت فى اجازته سند ما يرويه عن غيره من مصنفات أو آراء .

(٢) الحلة السيراء ص ١٠١ ــ ١٠٣ The Moors in Spain, By Stanley Lanc Poole. London 1920 . P. 155

(٣) نفح الطيب طبع ليدن جـ ١ ص ٢٥٦ وبلاغة العرب فى الاندلس ص ١٠ وتاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٦ .

(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٠٢ .

(٥) الأدب العربى وتاريخـه للأستاذ محمود مصطفى مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٨ جـ ٣ ص ٣١ ، ٣٢ .

وكان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة يشتغلن بكتابة المصاحف بالخط ، هذا فى ناحية من نواحى قرطبة فكيف بجميع أحيائها (١) بل ان دكان نسخ واحد بقرطبة كان يستخدم مائة وسبعين جارية فى نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة (٢) .

ولم تكن ثقافة الأندلسيين مقصورة على الأدب العربى وحده بل اقبلوا على الثقافات الأخرى يلتهمونها التهاما وبخاصة ثقافة الفرس والاغريق والرومان ، وكانت السفارات متبادلة بين الأندلس ودولة الروم الشرقية وكان حكام الدولتين يتبادلون الهدايا والتحف والألطاف وقد تلقى الخليفة عبد الرحمن الناصر من الامبراطور الرومانى هدايا عديدة استغلها فى تشييد مدينته « الزهراء » ما بين أعمدة رخامية وتماثيل مذهبة وأحواض مرمرية ، وكانت هذه الصلات ردا على صلات بغداد العباسية بالفرنجة أعداء الأندلسيين الألداء (٣) .

أما ما رويته بعض المصادر الأدبية من انهم كانوا يضيقون بالفلسفة القديمة والحديثة (٤) فان هذا حدث مرات محدودة حيث قام بعض الخلفاء والحكام باحراق طائفة من الكتب الفلسفية ارضاء للعامة فى ظروف خاصة ، فعل هذا الحاجب المنصور مع انه كان محبا للفلسفة مقبلا عليها (٥) ومن المعروف أن دراسة الفلسفة مقصورة على صفوة المثقفين فى جميع العصور ، وقد ذكر صاعد الأندلسى أسماء عشرات العلماء المشتغلين بالدراسات الفلسفية بالأندلس فى عصره « توفى سنة ٤٦٢ هـ » حيث أعلن أن العقول قد تحررت وأن كل من بقى لديه آثار فلسفية أظهرها « فلم تزل

---

(١) المعجب لعبد الواحد المراكشى مطبعة الاستقامة سنة ١٩٤٩ ص ٣٧٢ .

(٢) أثر العرب فى الحضارة الاوربية للأستاذ عباس محمود العقاد طبع دار المعارف سنة ١٩٤٦ ص ١١١ .

(٣) The Moors in Spain. P. 140-134

(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٦ .

(٥) المصدر السابق .